

Urban Transformations in Oases: the Case of Mezkitia Oasis, Morocco

Ait Hammou Mohamed*

Research Student, Department of geography, Faculty of Letters and Human Sciences, University Sidi Mohamed Ben Abdallah, Saïsfés, Morocco

Received: 26/1/2024

Revised: 28/3/2024

Accepted: 15/5/2024

Published online: 10/3/2025

* Corresponding author:

hammouda.taghrout@gmail.com

Citation: Mohamed, A. H. (2025).
Urban Transformations in Oases: the
Case of Mezkitia Oasis, Morocco.
Dirasat: Human and Social Sciences,
52(4), 7170.
<https://doi.org/10.35516/hum.v52i4.7170>

Abstract

Objectives: This study aims to highlight the transformations in housing patterns in the Mazkita oasis, emphasizing some of the spatial imbalances of this type of housing. It also seeks to elucidate one of the pillars of the oasis's authentic architectural heritage. Additionally, the study reveals numerous urban transformations in their various manifestations amidst the dynamics experienced by the oasis area.

Method: This topic was addressed using scientific approach involving geographical and historical methodologies, including observation, analysis, inference, and bibliographic and fieldwork. This included consulting reports and conducting interviews with residents and stakeholders to understand housing transformations in the Mazkita oasis.

Results: The urban transformations witnessed by the urban fabric of the Mazkita oasis resulted from the interplay of several causes. The most significant of these include the failure to implement the guidelines of planning and urban development tools, despite the oasis having benefited from several such tools. However, the guidelines of the land use plans specific to the oasis proposed by the master plan for planning and urban development were either not respected, were modified, or remained merely on paper.

Conclusion: In general, the southern Moroccan oases have historically experienced human settlement, leaving behind an architectural and cultural heritage evidenced by kasbahs, palaces, and old buildings. However, recent times have seen significant urban transformations affecting various ancient elements, with modern housing replacing traditional structures. This has led to significant spatial imbalances, resulting in the disappearance of the unique characteristics of the oasis area.

Keywords: Mezkitia oasis, Qsar, Urban transformation, oasis.

التحولات العمرانية في الواحات: حالة واحة مزكيطة -المغرب-

أيت همومحمد*

طالب باحث، قسم الجغرافيا البشرية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، جامعة فاس
سائيس، المغرب.

ملخص

الأهداف: تسعى هذه الدراسة، إلى تبين مظاهر تحولات نمط السكن بواحة مزكيطة، مع إبراز بعض الاختلالات المجالية لهذا النوع من السكن. وتبين إحدى ركائز التراث المادي المعماري الأصيل للواحة. علاوة على كشف الكثير من التحولات العمرانية بمختلف تجلياتها في ظل الدينامية التي يعرفها المجال الواحي، وتكمن أهمية الدراسة في أنها تجمع بين الطابع الوصفي التشخيصي والطابع التحليلي، من خلال رصد العوامل المتحركة في التحول السكاني بالواحة، وصولاً لمقترحات وتوصيات عملية.

المنهجية: عالجت هذا الموضوع وفق منهج علمي، أمكننا من ملامسة مجموعة من الجوانب ذات الصلة بالإشكالية اعتمدت مجموعة من التقنيات والأدوات التي تميز البحث الجغرافي. وقد ارتكنا على منهجية جغرافية، قائمة على الملاحظة والتحليل والاستنتاج، ومنهجية تاريخية من خلال فهم تحولات السكن بالواحة. وذلك بالاعتماد على تقارير ووثائق مختلفة وتقنيات متعددة منها العمل البيولوجرافي والعمل الميداني من خلال مقابلات موجهة للسكان والفاعلين.

النتائج: نجحت التحولات العمرانية التي يشهدها النسيج العمراني لواحة مزكيطة عن تدخل عدة مسببات، والتي يمكن حصر أهمها، في عدم تطبيق توجهات أدوات التهيئة والتعمير، بالرغم من أن الواحة استفادت من عدة أدوات في هذا المجال. إلا أنه رغم ذلك فإن توجهات مخططات شغل الأراضي الخاصة بالواحة التي اقترحتها المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير لم تحترم أو أدخلت عليها تعديلات أو أنها بقيت حبراً على ورق.

الخلاصة: شهدت عموماً واحات الجنوب المغربي، استيطاناً بشرياً قديماً خلف إرثاً عمرانياً وثقافياً تشهد عليه القصبات والقصور والمباني القديمة. لكن في الآونة الأخيرة عرفت تحولات عمرانية مهمة مست مختلف أركانها العتيقة، حيث حل محلها السكن العصري الجديد، مما ساهم في حدوث اختلالات مجالية مهمة أدت إلى اندثار خصوصيات المجال الواحي.

الكلمات الدالة: الواحة، القصر، القصب، السكن الواحي، التحولات العمرانية



© 2025 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license
<https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/>

مقدمة:

تعد الواحة منظومة تتألف من منظومات فرعية تشمل جوانب مختلفة منها الطبيعي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ولا يتأتى الفهم الحقيقي للواحة إلا ضمن هذا السياق، وقد كان لامتزاج تلك المنظومات الفرعية الدور الحاسم في رسم السمات العمرانية المختلفة. وانطلاقاً من ذلك فإن النسيج العمراني في الواحات تميز عن غيره من الأمكنة من خلال هندسته ومواد بنائه المحلية، والتي تمثلت أساساً في القصور والقصبات المبنية بمحاذاة واحات النخيل، وهي عوامل شكلت في مجموعها موروثاً عمرانياً محلياً أعطى لهذه الواحات هويتها العمرانية. إلا أنه في الآونة الأخيرة ونظراً لعدة اعتبارات ومتغيرات أصبحت الواحة تعيش جملة من التحولات لاسيما ما تعلق منها بالجانب العمراني، إذ لم تعد الواحات اليوم كما كانت عليه من قبل. إن حقيقة العمرانية والاجتماعية اليوم تودي بنا إلى الوقوف على ساحة من التحولات العميقة والمتسارعة، وهو الأمر الذي يبرز هنا مسألة الحفاظ على النمط العمراني الأصيل لهذه الواحة، وبالتالي الحفاظ على الهوية العمرانية لواحتنا. وعليه سنحاول في هذا المقال العلمي معالجة هذا الموضوع باختيار نموذج للتعمير في واحات الجنوب الشرقي واحة مزكيطة التي تشهد جملة من التحولات العمرانية، والتي وإن كانت جزءاً من المراحل العمرانية للواحة إلا أنها أحدثت تغييراً في الهيكل العمراني. لأسباب عديدة، منها ما يتعلق بنمو السكان وما يلحق ذلك من احتياجات شتى، ومنها ما يتعلق بالأنشطة، وأيضاً جزءاً من ذلك مرده إلى القرارات الإدارية، بالإضافة إلى تغير ذهنيات بعض الساكنة بشكل يتمرد على الموروث المحلي، وقد ظهرت نتائج هذا التحول في وظيفة وشكل وحجم الواحة. وسنقوم هنا من خلال المعاينة الميدانية بالتركيز على التحولات التي مست الجانب المورفولوجي للنسيج العمراني ونمط وهندسة المساكن، وأهم الأسباب التي أدت إلى ذلك، والنتائج المترتبة عن هذا الأمر، وفي الأخير وضع تصورات مستقبلية للتعمير من خلال جملة من الاقتراحات والتوصيات، معتمدين في ذلك المنهج الوصفي التحليلي.

إشكالية الدراسة:

شهدت واحة "مزكيطة" استقراراً سكانياً قديماً ارتبط بممارسة الأنشطة الفلاحية في بيئة صحراوية جافة، مستغلا مياه وادي درعة ومياه الفرشة الباطنية. هذا الوضع، فرض على الساكنة منذ القدم تشييد نمط سكني يلائم خصوصيات المجال والتأقلم مع الظروف المناخية الصعبة. لكن في الآونة الأخيرة حدثت تحولات عدة في نمط السكن بالواحة، حيث أدخل الإنسان الإسمنت المسلح وكل مواد بناء السكن العصري على السكن التقليدي والمتمثل في القصور، والقصبات، والزوايا وغيرها، في الوقت الذي كان يشكل فيه هذا السكن التقليدي إرثاً عمرانياً وثقافياً. فأصبحنا أمام ازدواجية النمط السكاني والانتقال من واحة قصور وقصبات إلى واحة متمدنة (Azam Pierre, 1947) هذا التمدن السريع ساهم بشكل كبير في تغيير المشهد الخارجي المعماري واندثار العمل الاجتماعي والتضامني الذي يميز المجالات الواحية. إضافة إلى حدوث اختلالات مجالية أخرى، استدعى ذلك اتخاذ تدابير عاجلة لإنقاذ هذه المجالات الواحية والحفاظ على استدامتها.

بناء عليه يمكن صياغة إشكالية الدراسة في الأسئلة الآتية:

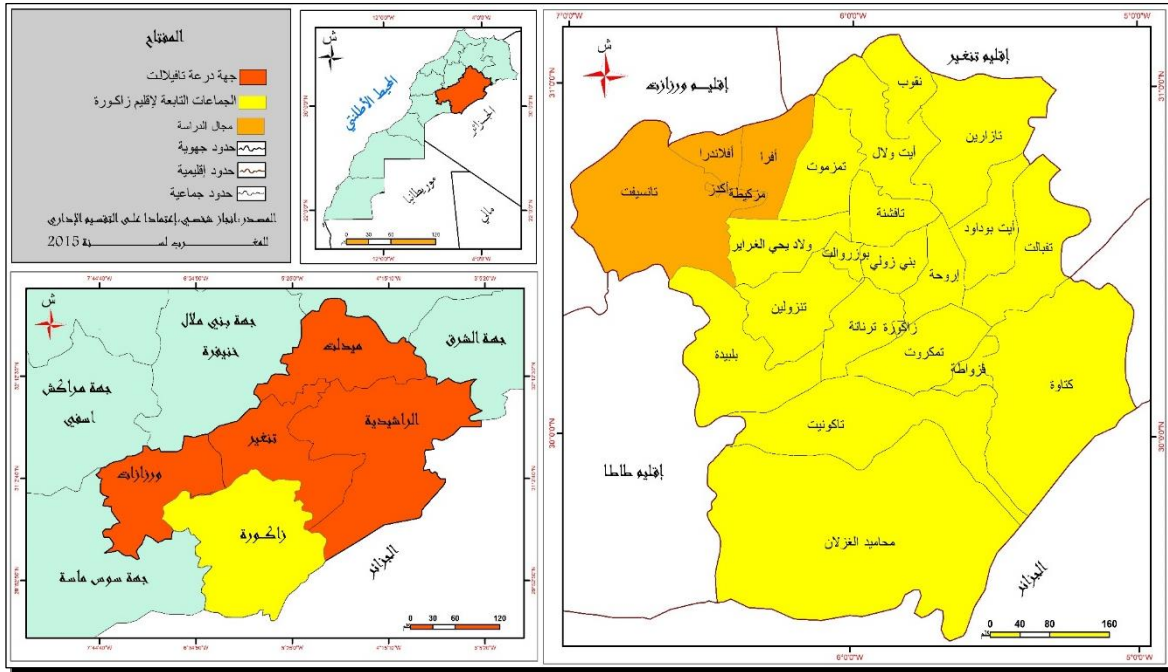
- أين تتجلى مظاهر تحولات نمط السكن داخل الواحة؟

- كيف أثر السكن العصري الحديث على خصوصيات الواحة؟

- ما الحلول التي يمكن اتخاذها لتحقيق تنمية مجالية مستدامة للواحات الجنوبية المغربية؟

1- منطقة الدراسة:

تقع واحة مزكيطة بين خط طول $6^{\circ}15'$ و $6^{\circ}30'$ غرب خط جرينتش، وبين خط عرض $30^{\circ}45'$ و $30^{\circ}30'$ شمال خط الاستواء وتنتهي إلى إقليم زاكورة. كما أنها مشكلة من خمس جماعات، منها 4 جماعات قروية وهي: جماعة أفرا، جماعة مزكيطة، جماعة تانسيفت وجماعة أفلاندر. إضافة إلى جماعة حضرية واحدة، وهي بلدية أكدر، التي تشكل أكبر تجمع سكاني بالواحة. تشكل بوابة درعة، حيث تمتد من "أفلاندر" إلى "إمي - ن - تنسيخت"، على مسافة 34 كلم. ويختلف اتساعها من العالية إلى السافلة، حيث يبلغ أقصى اتساعها حوالي كيلومتر ونصف، وتبلغ مساحتها 4752 هكتار، منها 2632 هكتار مسقية، كما تضم حوالي 27 قصراً (قصر تالوين، أكدر، تفرالكالت....). يقطع مجرى وادي درعة واحة مزكيطة بشكل طويل من سد المنصور الذهبي اتجاه الجنوب الشرقي.



خريطة 1: توطين منطقة الدراسة وطنيا وجهويا وإقليميا

المصدر: عمل الباحث بالاعتماد على التقسيم الترابي للمغرب سنة 2015

تتميز الواحة بسيادة مناخ صحراوي قاحل، حيث ارتفاع درجة الحرارة صيفا، وانخفاضها شتاء، وما يرافق ذلك من قلة التساقطات وارتفاع نسبة التبخر الشوي الذي أثر بشكل كبير على وضعية الموارد المائية، ويؤدي هذا المناخ القاحل، والنمو السكاني المتزايد، والجفاف المتكرر، إلى الضغط على الموارد الترابية وبالتالي اختلال التوازن الإيكولوجي بالواحات.

ومن الناحية الاقتصادية، تشكل الفلاحة المورد الأساسي للإنسان الواحي رغم قسوة الظروف الطبيعية والمناخية، ويرجع الفضل في ذلك إلى تكيف السكان مع هذه الظروف من خلال تنظيم المجال بطريقة تمكنه من توفير حاجياته المادية اعتمادا على وسائل إنتاج تقليدية. وتعد التمر في مقدمة المنتوجات الأخرى المستغلة داخل الواحة مع ظهور زراعات جديدة أهمها البطيخ الأحمر.

إن الربط بين المقومات الطبيعية والبشرية يعد من بين المسلمات المعتمدة في رصد تطور الظواهر الجغرافية داخل كل مجال. فالمعطيات البشرية لوحات درعة الوسطى، تؤكد قدم التعمير السكاني على شكل قصور وقصبات داخل الواحات وتشير إلى أن عدد السكان في تزايد مستمر، رغم ارتفاع وتيرة الهجرة وقسوة الظروف الطبيعية (البوزيدي، أ. 1994).

من خلال الدراسات السابقة، فإن النظر لهذه الظاهرة في الجزيرة العربية والدول الخليجية يلاحظ أن هذه المنطقة قد عاشت لفترة طويلة من الزمن حياة بسيطة قوامها الريف والصحراء وظلت بعيدة عن حياة المدينة والتحضر بأبعاده المختلفة، ولكن هذا التغير حدث تبعا للنمو الاقتصادي والاجتماعي المتلاحق، وقد أثر هذا كله على معيشة السكان وحياتهم، فازدادت الهجرة نحو مراكز الاستيطان - المدن - حيث فرص العمل المتوفرة والخدمات الميسرة وبريق المدينة الخلاب مقارنة بقسوة الصحراء وبطء حياة الريف مما حقق نموا مطردا للمدن بمستوياتها المختلفة، وتراجعا ملحوظا لمعدلات البداوة وحياة الريف، وليس هذا فحسب بل إن التطور الاقتصادي والنماء غير ملامح بعض القرى والمستوطنات الريفية الكبرى فجعل منها مدنا صغرى أو متوسطة الحجم، وعلى العكس من ذلك تلاشت مكانة كثير من التجمعات السكانية الريفية الصغرى بشكل مطرد مما كان له الأثر في تغيير معالم المشهد الريفي في المنطقة. (رمزي بن أحمد الزهراني، 2006).

كما انحسر ما يسي بالأسرة الممتدة، والمقصود بها سكن الابن بعد زواجه مع أبيه، وكذلك بقية الإخوة الذكور، حيث تضم الأسرة الوالدين، والأبناء وزوجاتهم وأبناء الأبناء، وبروز ظاهرة الأسرة النووية، وهي استقلال الأبناء مع زوجاتهم وأبنائهم في مساكن مستقلة بعيدة عن والديهم، خلاف الوضع السابق، مما يعني تفتت الأسرة، وهذا يتطلب المزيد من المساكن، وبالتالي التوسع كنتيجة طبيعية لذلك الطلب المتزايد على المساكن الاسمنتية المستقلة. فضلا عن التقاليد المجتمعية وأنماط السكن، وهي قد تكون السبب الرئيسي، فالمواطن الخليجي بشكل عام يميل إلى السكن المستقل، فنجده يحرص على السكني في بناية مستقلة، وعدم الرغبة في الإقامة ضمن السكن المتجمع، ويحرص على ذلك أشد الحرص ما لم يجد خلاف ذلك، لذلك كان هذا العامل الاجتماعي سببا من أسباب التحول العمراني بشكل كبير، وذلك نتيجة لتشييد المساكن العصرية في أطراف جديدة هربا من الكتلة السكنية).

رشود بن محمد الخريف، 1998).

2- مظاهر التحول العمراني في الواحة

يعتبر التحول العمراني - سواء أكان مخططاً أو عشوائياً- جزءاً من المراحل العمرانية للواحة، ويحدث جراء ذلك تغير في الهيكل العمراني للواحة بسبب نمو السكان والأنشطة، ويكون ذلك في القطاع العمر (داخل المنطقة المبنية) أو على الأطراف، وتظهر نتائجه في الوظيفة والحجم والشكل. وقد عرف النسيج العمراني - وما زال - في واحة مزكيفة جملة من التحولات، وسنركز فيما يلي على الجانب المورفولوجي للنسيج العمراني ونمط وهندسة المساكن، والتي يمكن حصر أهم صورها من خلال الدراسة الميدانية.

2-1 التحول في مورفولوجية النسيج العمراني للواحة

تم الاعتماد في الأنوية الأولى للنسيج العمراني- شأنها في ذلك شأن باقي الواحات - على التصميم المتلاصق على شكل قصور تضم عائلات، وقصبات باعتبارها جوف القصر والقصبة جوف الحصن يبني فيها بناء هو وسطه والغرب في الغالب يطلقون هذه الكلمة على كل ما له شبه كبير ببنيات القصب مجازياً وانتقلت بعد ذلك للدلالة على تلك المباني. حيث نجد بالواحة أحد أقدم القصبات وهي "قصبة الكلاوي¹" التي تم بناؤها من طرف هذا الأخير أثناء تغلغله في المنطقة والتي اتخذها قاعدة له، واستقر بها هو وعائلته خلال الاستقلال (مزيان، 1988).



الصورة (1): النسيج العمراني بالواحة متلاصق

فالقصر هو بناء متماسك لمجموعة من المنازل تتخذ شكلاً مربعاً تنتصب في زواياه الأربع أبراج، ويحيط به سور أو سوران متكاملان مع الأبراج (البوزيدي، 2020)، كلها أعدت لحماية القصر من غارات الأعداء والقصور المجاورة، وتسهيل المراقبة، ويتوسط السور من أحد الأوجه باب كبير يسمى "بفم القصر" يكون دائماً مرتفعاً نسبياً عن بقية أجزاء قصر السكن المحيط به (علوي، 1996).

ينتج عن القصر شوارع ضيقة توفر إمكانية تظليل البيوت بعضها ببعض نتيجة عدم تعرض واجهتها للإشعاع الشمسي، حيث إن الواحة تتميز بالحجم الهائل في مجال السطوح الشمسي طيلة أشهر العام، وقد تم أحياناً تسقيف أجزاء من شوارع القصر بغية تحقيق الراحة المناخية خلال النهار.

2-2 مواد البناء المستعملة في قصور واحة مزكيفة

اعتمد سكان الواحة منذ القدم وإلى يومنا هذا مواد محلية طبيعية ومتاحة، بداية بالتراب ومشتقاته، إضافة إلى جذوع النخل والقصب والأخشاب... هذه العناصر بينت فعاليتها وصلاحياتها كحلول معمارية ملائمة لبيئة الواحة، حيث أنتجت عناصر معمارية قاومت عواذي الزمن منذ مر العصور، يقول الوزان "وعلى ضفاف النهر يتوالى عدد كبير من القرى والقصور المبنية بالحجارة المنحوتة والطين والسقوف، كلها من جذوع النخل، وكذلك مع الخشب، مع أن هذا الخشب ليس له قيمة كبيرة." (الوزان الفاسي، ح. 1983). وبناء القصور يعرف بالهندسة الترابية، التي تتميز بجمالها وفخامتها المستقاة من بساطتها وانسجامها مع الوسط الطبيعي الذي أنشئت فيه، وهو أيضاً ما يعبر عن وحدة هذه المناطق وتميز شخصيتها. (إ. دانروس، 2006، ص 35).

2-3 التحول في نمط المساكن :

يعرف نمط المساكن في الواحة تحولاً، حيث تم الانتقال من النمط الفردي التقليدي إلى النمط الفردي العصري ومؤخراً النمط شبه الجماعي. يعد النمط الفردي التقليدي النمط الأصيل للواحة، وهو عبارة عن مبنى يحوى مسكناً واحداً يتسم بالاتساع، هذا النمط يحاكي في تصميمه ظروف

¹ الكلاوي حاكم منطقتي تودغي ودادس وكذلك درعة، هو من سهل مأمورية المستعمر في شخص (الضابط سليمان والجنرال ليوطي).

المنطقة الطبيعية والثقافية، وذلك ابتداء من واجهته، مروراً بمدخله الذي يمنع رؤية ما بداخل المسكن وذلك حفاظاً على خصوصية وحرمة الأسرة، ووصولاً إلى الحوش أو الفناء (يسمى محلياً بالرحبة) الذي يتوسطه، والذي يعمل كمنظم حراري بالمسكن، وانتهاء بالسطح الذي يستعمله أهل المنزل لأنشطتهم الحياتية "لأغراض عدة كتخزين التمور وأعلاف للحيوانات، وأيضاً تجفيف الملابس، كما يستعمل للتشمس شتاء وللنوم ليلاً في الصيف. (ميموروجي، 2005)

أما النمط الفردي العصري فهو أيضاً مبني به مسكن واحد، إلا أن ما يميزه عن النمط السابق كونه أقل اتساعاً، فهو مفتوح على الخارج من خلال مجموعة من النوافذ الكبيرة، وهذا النمط عبارة عن برامج سكنية عمومية قامت الدولة بإنجازها ابتداء من أواخر سنوات السبعينات.



الصورة (2): السكن العصري ينتشر بالواحة

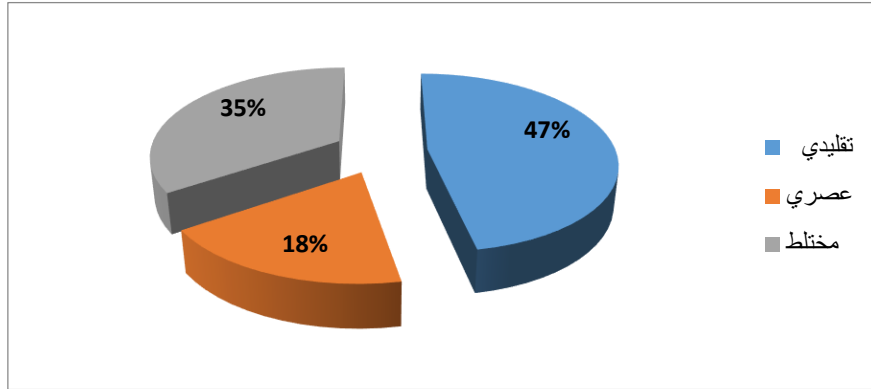
النمط المختلط واختلال المشهد الواحي

السكن المختلط يشغل نسبة كبيرة ضمن تراب الواحة، ويتميز هذا النوع من السكن باستعمال مواد تمزج بين مواد محلية تقليدية ومواد عصرية في نفس الوقت، وقد نجد ذلك في مسكن. من خلال تشخيص نوعية السكن السائد بالواحة، تبين عموماً أن السكن يتمحور بشكل كبير حول الطريق الوطنية رقم 09، والطريق الرابطة بين أكدرز وافلاندر.



الصورة (3): السكن المختلط واختلال المشهد الواحي

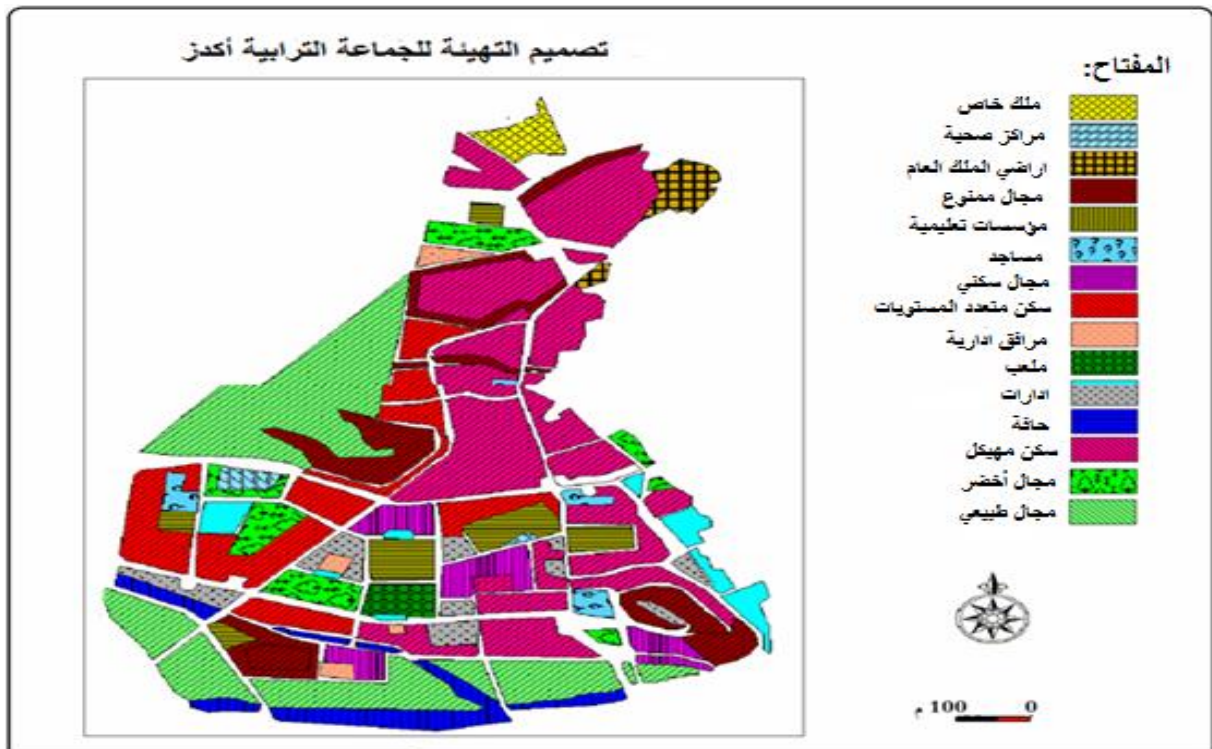
و يتسم هذا النمط بتنوع مهم، حيث نجد السكن التقليدي الذي يتمثل في القصور المبنية بمواد محلية وتتخلله بنايات عصرية من الأسمنت. كما هو موضح في تصميم التهيئة بإحدى جماعات الواحة (الجماعة الترابية أكدرز).



الشكل 1: بيان توزيع نمط السكن بالواحة

المصدر: نتائج عينة البحث الميداني 2023

أظهرت نتائج البحث الميداني أن الواحة أصبحت تعرف تراجع السكن التقليدي، لصالح السكن العصري الذي أصبح يأخذ مكانة لدى المجتمع الواحي حتى صارت نسبته 18%، وهو في تناقص لأن العديد من الأسر تسير نحو هذا النوع من السكن، في حين أغلب الأسر تفضل إدخال بعض الإصلاحات على السكن التقليدي وذلك في إطار السكن المزدوج أو المختلط بنسبة 35%، هذا الصنف خلق نوعاً من الاختلال في المشهد الواحي مما يساهم في طمس الهوية المعمارية، كما يعتبر هذا دليلاً على الدينامية التي يعرفها السكن بالواحة.



الشكل 1: تصميم التهيئة للجماعة الترابية بواحة مزكيطة

المصدر: القسم التقني لبلدية أكدز- بتصرف-

و كانت الأهداف المسطرة و المتوخاة من هذا التصميم تتمحور حول العناصر التالية:

- الحفاظ على الموروث العمراني المحلي.
- حماية وإعادة الاعتبار للمواقع الطبيعية.

عموما فتصميم التهئة" المعمول به حاليا "يعتبر مخططا طموحا، ورغم بعض النقائص التي تعترضه، خاصة فيما يخص المناطق التي يمنع فيها البناء، بحيث لم يضع حدودا في هذا المجال، لمنع التوسع في اتجاه الواحة، مما سمح لاكتساح الأسمت المساح للمجال الفلاحي، إضافة إلى هامش التوقعات الذي كان محدودا، بحيث إن الواقع أثبت أن التوسع هو في اتجاه الغرب والشمال الغربي، أي في المحور الطرقي نحو ورزازات.

2-4 التحول في مادة بناء المساكن :

تم بناء المسكن الفردي التقليدي في الواحة بمواد ملائمة للمناخ المحلي الحار والجاف، حيث استعمل في ذلك مادة الطوب المشكلة من مزيج مادتي الطين والرمل، كما أن الجدران الخارجية لهذا المسكن تميزت بالسلك الكبير الذي يصل إلى حوالي 50 سم صورة 12، أما السقف فهو مكون من طبقة من جذوع وجريد أو سعف النخيل.



الصورة (4): مكونات السقف بالسكن التقليدي

كما توضع عليها مادة الطوب، وبالتالي مواد البناء المستعملة هنا تحاكي البيئة المحلية، وتتناغم معها. إن استعمال مادة الطوب في البناء راجع -إضافة إلى توفرها محليا - إلى الخصائص العالية التي تتمتع بها هذه المادة في مسألة العزل الحراري، حيث إن مادة الطين لها خاصية عالية في تخزين الطاقة الحرارية من البيئة المحيطة وتباطؤ كبير في معدل توصيلها، أما النمطان الفردي العصري والشبه جماعي، وكذلك مختلف الترميمات أو إعادة البناء التي تشهدها مساكن النمط الفردي التقليدي، فإن كل ذلك أصبح يعتمد فيه على مادة الأسمت والخرسانة المسلحة، هاته الأخيرة التي لها خاصية التوصيل السريع للحرارة وكذلك سرعة فقدان لها، وهو الأمر الذي يؤثر في مدى الراحة المناخية التي توفرها للسكان بداخلها. (حافظي علوي، 2000).

2-6 التحول في المعالجات المعمارية لواجهات المساكن :

كانت واجهات المساكن في النمط التقليدي بسيطة وبها تشكيلات معمارية تقليدية، تتميز بلونها البني الناتج عن مادة الطوب المستعملة في بنائها، وكما رأينا سالفاً فقد كانت هذه الواجهات شبه مصمتة وتبين أن فلسفة العمران في الواحة كانت مفتوحة على الداخل من خلال الفناء الداخلي (الرحبة)²، ولكن ما يلاحظ اليوم في بعض المساكن الحديثة هو واجهاتها الهجينة والتي تعكس ثقافات دخيلة لا تعبر عن الموروث العمراني المحلي. و بالتالي فقد أصبحت بعض الواجهات مفتوحة على الخارج من خلال عدة نوافذ. (ميموروجي، 2005)

3- أسباب التحول العمراني في واحة مزكيطة

نجمت التحولات العمرانية التي يشهدها النسيج العمراني لواجهة مزكيطة عن تداخل عدة مسببات، ومكتننا الدراسة الميدانية انطلاقا من تمثلات الساكنة والفاعلين المحليين بالواحة، اعتمدنا على المقابلة شبه الموجهة كأداة من أدوات المنهجية الكيفية. ثم من خلالها دراسة آراء وتصورات الفاعلين

² المكان الذي يتوسط المسكن، والذي يعمل كمنظم حراري بالمسكن ويعتبر أحد عناصر التعبير الاجتماعي لمفهوم الخصوصية وسهولة ممارسة أهل المنزل لأنشطتهم الحياتية.

إتجاه ظاهرة التحولات العمرانية للتراث المعماري المبني بالتراب، والتي يمكن حصر أهمها في الآتي:

عدم تطبيق توجهات أدوات التهينة والتعمير بشكل صارم، وذلك بالرغم من أن الواحة استفادت من عدة أدوات في هذا المجال، والتي تهدف في الأساس إلى تنظيم المجال العمراني وحماية التراث المبني. إلا أنه وبالرغم من ذلك فإن توجهات مخططات شغل الأراضي الخاصة بالجماعات التي اقترحها المخطط التوجيهي للتهينة والتعمير لم تحترم أو أدخلت عليها تعديلات أو أنها بقيت حبراً على ورق ولم تطبق.

أما فيما يخص التهينة الترابية والتعمير يمكن القول إن التراب الحضري لأكدز يتمتع بوجود مجموعة من آليات التهينة الترابية التي تمكن الفاعلين من مواكبة مسلسل التنمية بتراب أكدر، من خلال الضبط والتحكم والتنظيم، لكن على الرغم من ذلك فإن هذه الآليات وحدها غير كافية للتحكم في جميع التحولات التي يعرفها التعمير بتراب الجماعة، حيث إنه يعرف توسعا مجالياً سريعاً في الوقت الذي استنفذ فيه الوعاء العقاري للتجزئات السكنية، وبالتالي توسع السكن على حساب المجالات المهددة بالفيضانات... مما يستدعي ضرورة التحكم في التوسع المجالي للمدينة. وهي من انتظارات الساكنة المحلية التي تدعو لضرورة تبني الحكام والمحاسنين، وتجاوز كل الإشكالات المرتبطة بالمحسوبة والزبونية التي يعيشها ميدان التعمير.

وهنا نتساءل عن الفائدة من صرف أموال طائلة على دراسة هذه المخططات؟ وهل القيام بالدراسات هدف في حد ذاته، أم أن الهدف هو التقيد بتطبيق توجهات تلك المخططات على الميدان، واعتبارها قانون التعمير الذي ينظم مختلف العمليات التي تمس النسيج العمراني؟ اللامسؤولية - أو ربما الجهل أحياناً - من طرف الهيئات التقنية والمسؤولين المحليين في اتخاذ بعض القرارات التي تخص التدخل على النسيج العمراني القديم وعدم التقيد من طرف بعض الساكنة بالتصاميم الهندسية للمساكن التي تم على أساسها منح رخصة البناء.

جعلت الثورة المعلوماتية والتكنولوجية الكبيرة بالإمكان الاطلاع على مختلف البيئات العمرانية بكل سهولة ويسر، وهو ما أدى ببعض إلى الانهيار بتصميمات معمارية لا تمت بصلة إلى الموروث المحلي للواحة بكل ما يحمله من زخم. يرجع التوسع العمودي في الواحة إلى الطلب المتزايد على السكن، وفي غياب أوعية عقارية جديدة مهيئة لذلك فقد لجأ بعض الساكنة إلى الاعتماد على التوسع العمودي داخل النسيج العمراني القديم هذا من جهة، ومن جهة ثانية تغير النظرة الحالية للسكن من طرف البعض، فلم يعد ينظر إليه باعتباره مجالا خاصا بالوظيفة السكنية فقط، وإنما يمكن استغلال الطابق الأرضي فيه لإنجاز محلات تجارية للكراء، وخصوصاً بعد الإمكانية التي وفرتها الخرسانة المسلحة في هذا المجال أي لسهولة بناء عدة طوابق وأصبح بالإمكان الاعتماد على الطاقة الكهربائية لتحقيق الراحة المناخية داخل المساكن، وهو ما عزز البعض إلى العدول عن المواد التقليدية التي اعتمدت سابقاً في البناء والتحول إلى مواد بناء عصرية. (السملالي، ع 2006).

4- نتائج التحول العمراني في واحة مزكيطة:

أدت التحولات العمرانية في واحة مزكيطة التي تم التطرق إليها آنفاً إلى مجموعة من النتائج نذكرها في ما يلي:

نسيج عمراني مشوه: أدت عمليات الترميم أو الهدم وإعادة البناء بواسطة الأسمنت والخرسانة المسلحة التي قام بها الساكنة في الأنوية القديمة للواحة إلى تداخل بين المساكن التقليدية والحديثة.



الصورة (5): نسيج عمراني مشوه

تتضح مجموعة من التغييرات التي تم إدخالها من طرف القاطنين بالنمطين الفردي والعصري والشبه جماعي، والتي تمثلت في تسييج بعض النوافذ المطلّة على الخارج أو حتى غلقها نهائياً وكذلك زيادة ارتفاع السور الخارجي للمسكن.

تلاشي ملامح الهوية العمرانية:

وجاء ذلك نتيجة للهندسة المعمارية في بناء بعض المساكن الغربية عن التشكيلات المعمارية الأصيلة التي عرفت الواحة عبر مسارها العمراني، والتي

أوضحنا سابقاً أنها كانت مفتوحة على الداخل وتحافظ على حرمة وخصوصية الأسرة. وبالتالي فقد أدخلت اليوم بعض المساكن ذات طراز معماري لا يمت بصلة إلى المنطقة لا من حيث البيئة الطبيعية الصحراوية ولا من حيث القيم والعادات للسكان، وأصبحت مفتوحة على الخارج من خلال النوافذ الكبيرة. وهو أمر غاية في الخطورة كونه يؤدي إلى تلاشي ملامح الهوية العمرانية للواحة. ولا يمكن تعريف أي مجال بمعزل عن جغرافيته وتاريخه، واللذان يمكن اعتبارهما عنصرتين مهمين في حياة الواحة، هذه الأخيرة التي تبنى على المكان وتؤرخ من خلال عمراتها للحقب الزمنية المختلفة التي شكلت الموروث العمراني بكل زخمه. وبالتالي وانطلاقاً مما سبق فإننا نعتبر أن التحول العمراني بالواحة أدى إلى ضياع و فقدان جزء من تاريخها المرئي. إن من المجزوم به في عالم الإنسان أن النسيج العمراني للمجتمع يشكل انعكاساً طبيعياً لرقى ذلك المجتمع وأخلاقياته وقيمه ومعاملاته وشخصيته المميزة وقناعاته التي يؤمن بها، ولو حدثت فجوة بين نسيجنا العمراني ونفوسنا لماتت نفوسنا، ولو عاشت نفوسنا في بيوت من غير بيئتنا لاكتأبت وخملت، لذلك لا عجب أن يبرز على سطح المجتمع عدد من الآثار الاجتماعية، أو مشكلات جزئية أخرى تابعة لها ومتولدة عنها، وقد لا تظهر هذه الجزئية في الوقت الراهن.

الاقتراحات والتوصيات:

تقتضي التحولات العمرانية التي تشهدها واحة مزكيطة وضع تصورات من خلال مجموعة من الاقتراحات والتوصيات، والتي نراها ضرورية قصد الحفاظ على الموروث العمراني وعلى الهوية المحلية، وتتمثل في الآتي:

- وضع شروط صارمة في اختيار مكاتب الدراسات الموكل إليها إنجاز مختلف مخططات التعمير، وأيضاً مختلف الدراسات العمرانية، حيث لا بد أن يكون ذلك ضمن نطاق الخصوصية المحلية، بعيداً عن المخططات النمطية (نسخ طبق الأصل) لعدة أمكنة مختلفة بيئياً. كما أنه من الضروري في هذا المجال أخذ آراء كل الفاعلين في ميدان التعمير عند المصادقة على هذه المخططات، وإذا اقتضى الأمر توسيع دائرة الرأي لتشمل مختصين في علم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد.
- ينبغي لاستدامة الهوية العمرانية للواحة أن تستلهم التصميمات المعاصرة من التشكيلات المعمارية الأصلية الموروثة محلياً، كما يجب في هذا الصدد أيضاً توعية الساكنة بالأنماط القديمة لواحة مزكيطة وبأهمية الحفاظ على شخصية الواحة وعلى طابعها العمراني.
- لا بد للهيئات التقنية المخول لها استصدار مختلف عقود التعمير أن تشدد على مسألة الحفاظ على النمط العمراني المحلي، وهذا عند تسليم رخص البناء.
- ضرورة إشراك الساكنة في مختلف عمليات التهيئة العمرانية، وأخذ آرائهم ومقترحاتهم في هذا الجانب بعين النظر، كونهم المستهدفين من كل تلك العمليات، وبهذا نجعل من الواحة ومجالها العمراني فضاء تتقاسم فيه الكلمة جميع الأطراف المستعملة له دون إهمال أو إقصاء أي طرف بغية حماية المباني والهياكل القاعدية بالواحة من التلف.
- استغلال الكمية الهائلة للسطوح الشمسية التي تعرفها الواحة طوال أيام العام في توفير الطاقة، وهو أمر يندرج ضمن مفهوم التنمية المستدامة كونه يعتمد على طاقة نظيفة.

المصادر والمراجع

أيت حمزة، م. (1993). *التوازن الأيكولوجي الواحي بين التنافس والتكامل*. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس.

البوزيدي، أ. (1994). *التاريخ الاجتماعي لدرعة مطلع القرن 17 مطلع القرن 20م دراسة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال وثائق محلية*. مجلة آفاق، صدر الكتاب بدعم من مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء.

الوزان الفاسي، ح. (1983). *وصف إفريقي*. بيروت: دار الغرب الإسلامي، الشركة المغربية للنشرين المتحدتين.

دانروس، إ. (2006). *المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي: المواجهة المغربية للإمبريالية الفرنسية 1881-1912*. منشورات زاوية، مطبعة المعارف الجديدة الرباط.

علوي، أ. (1996). *مدغرة وادي زيز إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث*. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

البوزيدي، أ. (2001). *الزوايا العلمية بواحة "اكتاوة" على عهد السعديين والعلويين*. مجلة أمل عدد مزدوج، *نظيمة الزوايا في علاقتها بالمجتمع والسلطة*، 22-23.

البوزيدي، م. (2020). *قصور واحات الجنوب الشرقي بين الماضي والحاضر*. مجلة المناهل، مدن وحوض مغربية، 215-229.

الزهراني، ر. (2006). *توزع المدن السعودية 1425هـ/2004م*. مجلة العلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، دولة الكويت.

الخريف، ر. (1998). *التحضر في المملكة العربية السعودية: دراسة في تعريف المدن وتوزيعها الحجي ومعدلات نموها السكاني*. مركز البحوث، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.

- صديقي، أ. (2013). *الإشكالات التقنية والقانونية لتدبير التراث المعماري بواحات الجنوب الشرقي المغربي*. الرباط: منشورات مركز الدراسات التاريخية والبيئية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.
- الصادقي، م. (2020). *التنظيم العمراني والمعماري بقصور المغرب الشرقي قصر الزاوية الصادقية نموذجا*. مجلة المناهل، مدن وحواضر مغربية، 248-231.
- السملالي، ع. (2006). *تدخلات الدولة ودور المجتمع المدني في التنمية القروية بجماعة تاكونيت واحة اكناوة*. بحث نيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.
- مزيان، أ. (1988). *مساهمة في دراسة المجتمع الواحي بالجنوب الشرقي المغربي خلال القرن التاسع عشر فجيح ما بين 1845 م-1903 م*. بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، المغرب، مطبعة فجر السعادة، الجزء الأول.

References

- Sadki, A. (2007). *Environment, landscape and territorial project, towards a territorial approach for the safeguarding and development of the southern Moroccan Oases biosphere reserve*. Master's thesis, Senghor University, France.
- Jacques, F. (2001). National study on biodiversity in Morocco, synthetisis report. Morroco: Ministry of Territorial Planing, Water and Environment.
- Bentaleb, A. (2011). water pumping and desertification in the middle Draâ valley: case of the Mezguita palm grove (Morocco),(p 66), article published in the Algerian Review of Anthropology and Social Sciences.- F. De lachapelle(1929), une cité de l'oued Draa sous le protectorat des nomades,(p 29-42, pp 223-224) Nesrat, Revue d'histoire.
- Niclausse, A. (1954). Relationships between nomads and sedentary people in the bend of the Draa,(p120) la Raia, C.H.E.A.M.
- Pierre ,A (1947). The political and social structure of wadi Draa. C.H.E.A.M.